مجلة كلية الآداب. جامعة الإسكندرية . المجلد ٧١ . العدد ١٠٤ .

مفهوم التسامح عند فلاسفة عصر التنوير .

تقديم: **د. منال وجدي علي**

مدرس بالجامعة الكندية(CIC)

dr.Manal.Wagdy@gmail.com

أولاً : مقدمة .

ثانياً : التسامح بين النشأة و المفهوم .

١- النشأة .

٢- المفهوم اللغوي للتسامح .

المفهوم الإصطلاحي للتسامح .

٣- هل يعتبر التسامح مفهوماً فلسفياً .

التسامح في الفلسفة الغربية الحديثة .

جون لوك و التأسيس المعرفي للتسامح الديني .

فولتير و محاربة التعصب و الإكراه في الدين .

خاتمة .

أولاً : مقدمة :

نظراً لما يعرفه العالم اليوم من إنعطافة خطيرة بسبب الصراعات القاتلة و النزاعات الدامية التي تعمق التناقضات و العنف و نشر الأحقاد و الضغينة و ما نشاهده من تعصب للمواقف و الأفكار حيث كل فئة تتحصن وراء أسوار من الغلو، كل هذا يدعونا إلى إعادة النظر في مفاهيم أخرى بعيدة عن هذه التوجهات كمفهوم التسامح لنحدد له مكاناً بين هذه المناقضات التي تعيشها مختلف أوجه الحياة.

فقد عانت المجتمعات البشرية من تفاقم مظاهر التعصب و العنف و اللا تسامح، مما أحدث خللاً في الأسس و المبادئ و القيم التي تحكم العلاقة بالأخر لدرجة إقصائه فكرياً و سياسياً و دينياً و إنسانياً... فغياب التسامح يؤدي إلى سيادة عقلية التحريم و التجريم.

بالمقابل إكتسب مفهوم التسامح معانٍ عدة، و تجسد بصور متنوعة عبر اختلاف أشكال الوعي الإنساني، فلم يعد التسامح مقتصراً على الجانب الطائفي و الديني بل أمتد ليشمل الجانب السياسي الحقوقي الإجتماعي، الإثني لذلك أنبرى الفلاسفة لإثارة العديد من القضايا و المسائل المتعلقة بالتسامح، فكانت الفلسفة من أكثر الميادين المعرفية التي عملت على ترسيخه في العقل البشري.

و بما أن الحاجة تدعو اليوم إلى بعث الحياة في القيم الإنسانية و نشرها، فقد يكون من المناسب التدقيق في مفهوم التسامح، فالتسامح المأمول اليوم ليس فضيلة فحسب بل هو ضرورة وجودية و إجتماعية و ثقافية و سياسية، و ذلك من أجل تحصين واقعنا أمام كل مخاطر العنف و التعصب الأعمى الذي يمكن أن يحيط بنا.

و تمثل الفلسفة الغربية الحديثة و فلسفة عصر التنوير على وجه الخصوص إنطلاقة نحو التجديد على مستوى إشكالية المعرفة و القيم، كما مثل عصر التنوير محاولات كثيرة للتجديد على مستوى الأخلاق، و من أهم هذه القيم التي كانت سائدة "التسامح" بوصفه قيمة أخلاقية ذات علاقة بالسياسة و المجتمع و الدين.

و من بين أهم رواد هذا الإتجاه التنويري "فرانسوامارى اروية" "francois marie aroet" المعروف بإسم "voltaire" " فولتير" (٢١ نوفمبر ١٦٩٤ – ٣٠ مايو ١٧٧٨) و هو من أكثر فلاسفة التنوير دفاعاً عن مبدأ التسامح، حيث تناولت أعماله الأدبية و الفلسفية مواضيع إنسانية بحته، فقد دافع فولتير عن الإنسان و نبذ كل أشكال الظلم و التعصب و الأستبداد و دعا إلى الحرية و التسامح، و كان يحلم بمجتمع فرنسي تتعايش فيه الطوائف الدينية مع بعضها البعض، و تحترم حقوق الإنسان و تمنح له الحرية في ممارسة معتقداته و التعبير عن أرائه، فكانت كتابات فولتير تحارب و تنتقد الكنائس و الطوائف الدينية المتعصبة المستبدة.

ثانياً : التسامح بين النشأة و المفهوم .

١- النشأة :

يسجل مفهوم التسامح حضوره في عمق التجربة الإنسانية و يتجلى في صيغ تتنوع بتنوع المجتمعات الإنسانية في إطار الزمان و المكان و قد أخترقت كلمة التسامح أبجديات الحوار السياسي و الديني مع نهاية القرن العشرين حتى أصبحت عنواناً لهما كما سجل حضوره أيضاً في الحضارات القديمة و في الوصايا العشر كما إحتضنته الحضارة الإسلامية.

و من الضروري أن نشير إلى أنه "ولدت كلمة التسامح في القرن السادس عشر (١٦م) نتيجة الحروب الدينية بين الكاثوليك و البروتستانت، فقد إنتهى الأمر لأن تساهل الكاثوليك مع البروتستانت و العكس، ثم صار التسامح يرتجى إتجاه جميع الديانات و كل المعتقدات، و في أخر المطاف، في القرن التاسع عشر (١٩م) شمل التسامح، الفكر الحر"(١).

و يعد كتاب جون لوك "رسالة في التسامح" ١٦٨٩ وثيقة تاريخية لتطور هذا المفهوم حيث يؤكد في مضامين هذه الرسالة أن التسامح جاء كرد فعل تجاه الصراعات الدينية في أوروبا و في هذا يقول "إن الدولة لجميع الأديان" حيث يتعرض إلى أسباب دعوته إلى فكرة التسامح و دعوته إلى عدم إضطهاد أي إنسان في طلب أرسله إلى "فليب فان ليمورخ" عام ١٦٧٩ بعنوان "الرسالة في التسامح" و هو دعوة إلى عدم إضطهاد أي إنسان من طرف الكنيسة بحجة العقيدة فحرية الإعتقاد مكفولة للجميع فالدولة و الكنيسة يجب أن تعمل على تحقيق السعادة للمواطنين عن طريق نشر التسامح و المحبة فهما قوتان مستقلتان. (٢)

و لعل فولتير ١٦٩٤-١٧٧٨ فيلسوف التسامح بحق إذ يقول "كلنا ضعفاء و ميالون لقانون الطبيعة و المبدأ الأول للطبيعة هو التنوع و هذا يؤسس لتنوع في مجال الحياة الإنسانية و قبول هذا التنوع حق أساسي للوجود". (٣)

و من هنا يمكننا القول أن عصر التنوير في القرن الثامن عشر كان الرحم الذي نشأت فيه فكرة التسامح بأبعادها كحقيقة فلسفية حيث تأسست على مبدأ إنساني جوهره ألا أحد يملك الحقيقة المطلقة و هذا مؤداه ضرورة الإيمان بالإختلاف و ضرورة التواصل بين الإنسان و الإنسان في إطار القبول بالأخر.

---

(١) اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، ترجمة : خليل أحمد خليل، دار عويدات، بيروت، ط٢، ٢٠٠١، ص:١٤٦٠.

(٢) جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة : عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨، بيروت، ص:٩.

(٣) اميل برهييه، تاريخ الفلسفة القرن الثامن عشر، ترجمة : جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص:١٨٠-١٨١.

٢- المفهوم اللغوي للتسامح:

يرى بعض المفكرين أن اللغة العربية لا تنطوي على مفهوم واضح للتسامح بالمعنى المعاصر للكلمة، حيث جاء في لسان العرب (سمح، التسامح – السماحة و التسميح و تعني لغة الجهود، و اسمح إذ جاء و أعطى بكراً و سحاء و أسمح و تسامح وافقني على المطلوب و المسامحة هي المساهلة) (١).

و قد جاء في مختار الصحاح سمح أي جاد و (سمح) له أعطاه. و (سمح) له أي أعطاه و (سمح) من باب ظرف صار (سمحاً) بسكون الميم و نسوة سماح بالكسرة و المسامحة المساهلة و تسامحوا تساهلوا. (٢)

و نلاحظ أن الأصل اللغوي للفظة التسامح المستخدمة كما يظهر في لسان العرب و مختار الصحاح و غيرهما من القوانين العربية لا يشير إلى أن المعاني الحديثة للتسامح حيث تعنى الكرم و الجود و المساهلة، فهى ألفاظ تلغى مبدأ المساواة الذي يعتبر شرطاً في الدلالة الحديثة للتسامح، كمفهوم الكرم و السخاء و تبرز التفاوت بين أطراف العلاقة.

أما في قاموس "لاروس" الفرنسي فإن التسامح Tolerance إسم مؤنث، احترام حرية الأخر، أرائه، طريقة نمط عيشه...إلخ. (٣)

و جاء في القاموس المحيط سمح – ككرم : سماحا و سماحة و سمحاً ككتاب : جاد – و كرم، كأسمح. (٤)

أما في تعريفات الجرجاني "فإن المسامحة هي ترك ما تحب تنزهاً".(٥)

---

(١) ابى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظر الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، المجلد الثاني، ط١، ١٩٩٧، ص:٢٥.

(٢) فخر الدين الرازي، مختار الصحاح، ص:١٦٣.

- http://almeshkat.nel - http://al-mostafa.com

(3) (Dictionnaire de francais.ed, larousse, 2008, p424)

(٤) مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطاعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥، ص:٢٢.

(٥) على بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق : محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر و التوزيع، القاهرة، ص:٥١.

المفهوم الإصطلاحي للتسامح :

مع بروز ملامح الحداثة الأوروبية ولا سيما ظهور دولة القانون و المجتمع المدني و العلمانية. وخلال القرن ١٩ تم توسيع مفهوم التسامح على مجالات الفكر، و تعايش الأراء المختلفة، و تأسيس المفهوم على نسبية الحقيقة و معارضة الفهم الأخلاقى له، فالفكر المتسامح فكر متفتح، ولا سيما فلسفة التنوير التي بدأت منذ القرن ١٨ بما حملته الفلسفات من قيم و مفاهيم و أفكار جديدة حول العقل و الحرية و المساواة و الحقوق الطبيعية و حقوق الأنسان.

فقد جاء فى المعجم الفلسفي لأبراهيم مدكور أن التسامح سعة صدر تفتح للأخرين أن يعبروا عن آرائهم و لو لم تكن موضوع تسليم أو قبول، ولا يحاول صاحبه فرض آراءه الخاصة على الأخرين أما عن التسامح الديني فهو إحترام عقائد الأخرين. (١)

و يقول أندريه لالاند في الموسوعة الفلسفية "هو طريقة تصرف شخص يتحمل بألاعتراض أذى مألوف يمس حقوقه الدقيقة بينما في إمكانه رد الأذية"(٢)

و يقول جميل صليبا "هو أن تترك لكل إنسان حرية التعبير عن أرائه و إن كانت مضادة لأرائك، فلابد أن يحترم المرء أراء غيره لإعتقاده أنها محاولة التعبير عن جانب من جوانب الحقيقة.(٣) و التسامح في اصطلاحات فولتير Voltaire (١٦٩٤- ١٧٧٨) و غيره من فلاسفة القرن الثامن عشر، هو ما يتصف به الإنسان من أنس و أدب و تمكن من معايشة الناس رغم أختلاف آرائهم"(٤). و قد نصت المادة الأولى من إعلان "مبادئ حقوق الإنسان" على أن التسامح يعني الإحترام و القبول و التقدير و التنوع الثرى لثقافات عالمنا و لأشكال التعبيرو للصفات الإنسانية لدينا، و يتعزز هذا التسامح بالمعرفة و الإنفتاح، و الإتصال و حرية الفكر و الضمير و المعتقد، و أنه الوئام في سياق الأختلاف و هو ليس واجباً أخلاقياً فحسب. (٥)

يشكل التميز بين البشر على أساس الدين أو المعتقد إهانة للكرامة الإنسانية و إنكار المبادئ ميثاق الأمم المتحدة، و يجب أن يشجب بوصفة إنتهاكاً لحقوق الإنسان(٦) و بهذا المفهوم يكون التسامح هو ركيزة المجتمع الديمقراطي "يحظر القانون أية دعوة إلى الكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية تشكل تحريضاً على التمييز أو العداوة أو العنف"(٧)

---

(١) ابراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، القاهرة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، مصر، ١٩٧٣، مجمع اللغة، ص:٤٤.

(٢) اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المرجع السابق، ص:١٤٦٠.

(٣) جميل صليبا، المعجم الفسلفي، ج١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص:٢٧١.

(٤) عبدالرحمن بدوى، الموسوعة الفلسفية، ج٢، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص:٢٧١.

(٥) المادة الأولى من اعلان مبادئ حقوق الإنسان.http://mansourdialogue.org/Arabic/fikr2-htm/

(٦) فيولت داعز، الطائفية و حقوق الإنسان، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، دار المستقبل العربي، ص:٣٣.

(٧) المادة ٢٠، المرجع السابق، ص:٣٥.

و يمكننا ملاحظة أن المفهوم الإصطلاحي للتسامح يتميز بنوع من المحدودية و لعل ذلك يرجع إلى الترجمة العربية و تعريبه بلفظ التساهل و ليس التسامح، فالبعض مازالو يرجحون لفظ التساهل كمقابل عربي للفظ اللاتيني tolerance .

٣- هل يعتبر التسامح مفهوماً فلسفياً :

إذا نظرنا إلى العلاقة بين الفلسفة و التسامح من خلال التعريفات السابقة لمفهوم التسامح تبين لنا أن الفلسفة هي أكثر المجالات إستعداداً لقبول التسامح و العمل به. فالبحث عن الحقيقة لا يعني إمتلاكها. و ما دام المرء يبحث عن الحقيقة، ولا يدعى إمتلاكها، فهو بالضرورة يقر بالتعدد و الإختلاف و يتجنب إصدار أحكام تقصى الأخر... فالفلسفة بهذا المعنى هي ميدان للإجتهاد، و التسامح يتحقق في الإجتهاد إذ هو مجاله الطبيعي، فالفلسفة إذن هي المجال الحيوي للتسامح بإمتياز.

و لكن السؤال الأن هل كانت الفلسفة طوال تاريخها مخلصة لهذا المبدأ؟.

يقول (ياسبيرز) أن الفلسفة قد تجاوزت مهمتها من البحث عن الحقيقة إلى إدعاء إمتلاكها، فأصبحت الفلسفة، عقيدة دوغمائية. ايديولوجية تتنكر للأجتهاد و تلغى الأختلاف و تنحو نحو الأستبداد و الهيمنة. و الواقع أن كلمة "التسامح" غائبة عن الخطاب الفلسفي بشكل عام. (١) و هذا يعود إلى أن كلمة "تسامح" دخلت الفلسفة من باب الفكر المعبر عن الصراع، و محاولته للتحقق منه، أي من باب الأيديولوجيا و بقيت محل إعتراض.

و الحقيقة أن فكرة التسامح إنتشرت في أوروبا كردة فعل على حروب أوروبا الدينية. (٢) و كان لكثير من فلاسفة و مفكرين عصر التنوير العديد من المساهمات التي أدت إلى إغتناء المفهوم و توسيع حقول إستعماله. أمثال سبينوزا و روسو و لوك و فولتير. فنحن مدينون بنظرية التسامح الحديثة على يد "جون لوك" و فولتير و غيرهما من فلاسفة التنوير.

و بذلك يمكننا القول أن مفهوم التسامح ظهر إلى الوجود في نطاق الدين ثم نطاق الأيديولوجيا و السياسة ضد السلطة أو معها ، و هذا ما تسبب في تحفظ الكثير من الفلاسفة تجاه مفهوم التسامح تفادياً لجنوحه إلى الإستبداد، حيث يؤكد البعض ضرورة إستعمال كلمةإحترام و ليس تسامح، و هذا حسب موقف merabeau "ميرابو" إذ يقول "إن السلطة التي تسامح يمكن أن لا تسامح" و كذلك يقول ديدرو "Denis Diderot " (١٧١٣-١٧٨٤) التسامح هو نظام المقهور الذي تتركه عندما يصبح قويا لدرجة أن يصبح قاهراً، لا متسامحاً. (٣)

و هنا لابد أن نعترف بمسألة أساسية و هي أن التسامح، مهما قلنا و مهما تحفظنا، يجئ دوماً من جانب الأقوى حجة. فهو دوماً تأكيد لسيادة. هذا ما نلمسه حتى عند بعض المؤسسين له. فكانوا يقولون : إذا لم تستطع أمام الشر حيلة، فتغاض عنه، حتى إن كنت تراه كذلك، فذلك هو السبيل لتحمل العيش إلى جانبه. (٤)

---

(١) سمير أبو حمدان، فرح أنطوان، صعود الخطاب العلماني، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب العالمي، الدار الإفريقية العربية،١٩٩٢، ص:٩٦.

(٢) سمير خليل، التسامح بين شرق و غرب، بيروت، دار الساقي، ط١، ١٩٩٨، ص:١٧.

(٣) أنظر : المرجع السابق، ص:٢٨٥.

(٤) المرجع السابق، ص:٢٣.

و ما يمكن الوصول إليه هنا هو أن مفهوم التسامح لا يمكن فهمه إلا إذا وضع في سياقه التاريخي، لأن الأفكار لا تنشأ من فراغ ولا تنتشر إلا إذا كانت تلبي حاجات تاريخيه معينة ولذا كان من المنطقي أن يتأسس هذا المفهوم و يأخذ أهمية في أوروبا من خلال عصر التنوير، ذلك أن الفلسفة هي أكثر الميادين المعرفية إستعداداً للقبول بهذا المبدأ و العمل به و الإبتعاد بصاحبها عن التعصب الأعمى للأراء و المذاهب، و جعله يصفى للأخرين و يتبادل معهم الأفكار و التجارب، فلولا الفلاسفة لما كان لمفهوم "التسامح" أن يرسخ في بنية العقل الغربي الحديث.

و على الرغم من تأكيد محمد عابد الجابري على غياب مفهوم التسامح في الميراث الفلسفي، و أن المفهوم هو نتاج الأيديولوجيا و السياسة، إذ يراه مفهوماً ايديولوجياً، لا يحتل مساحة كافية من الأنشغال الفلسفي، فإن ذلك لا ينفي أن المفهوم يحتل موقعاً متميزاً بالفلسفة السياسية لإرتباطه الوثيق بقضايا متشابكة، لا يمكن تجاهلها. هذا بحد ذاته يشير إلى حضور دلالة التسامح بوصفه رفضاً للتعصب و قبولاً للأخر، قبولاً مشروطاً. إنه الحضور بالمدلول و ليس حضوراً بدال "التسامح".(١)

---

(١) محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص:٤٤.

التسامح في الفلسفة الغربية الحديثة :

احتل مفهوم التسامح موقعاً متميزاً في الفلسفة الغربية، فقد ظهر مفهوم التسامح إصطلاحياً أول ما ظهر في كتابات فلاسفة التنوير في القرن السابع عشر الميلادي؛ زمن الصراع الديني بين البروتستانت و الكنيسة الكاثولوكية، حينما نادى أولئك بحرية الأعتقاد و طالبوا الكنيسة البابوني بالتوقف عن التدخل في العلاقة بين الله و الإنسان، و بضرورة التسامح مع المخالفين؛ الشئ الذي يعني السماح لهم بحق الوجود، و حق التعبير عن مذهبهم، و القيام بالشعائر الدينية على الطريقة التي يعتقدون بأنها الأصلاح، و كان أبرز من قدم الحجج و البراهين الممهدة للتسامح الديني كل من جون لو و فولتير.

و من المفيد هنا أن نذكر مساهمات مفكرين و فلاسفة عصر التنوير في أعتناء المفهوم و توسيع حقول إستعماله.

حيث كتب اسبينوزا في الفصل الأخير من رسالته الأخيرة في اللاهوت و السياسة. "إن أسوأ موقف توضع فيه الدولة هو ذلك الذي تبعث فيه إلى المنفى بالشرفاء من رعاياها و كأنهم مجرمون، لا لشئ إلا لأنهم إعتنقوا آراء مخالفة لا يستطعون إخفاءها".(١) و كتب روسو في العقد الإجتماعي "يخطئ في نظرى أولئك الذين يفضلون بين الا تسامح المدني و اللا تسامح اللاهوتي. فهذان النوعان لا إنفصام بينهما. إذ من المعذر العيش بسلام إلى جانب من نعتقد أنهم هالكون. فإذا أحببناهم و قبلناهم نكون قد غلطنا في حق الإله الذي عاقبهم. فلابد إذن من أن يروا أو يعذبوا. فحيث يكون اللا تسامح الديني مقبولاً، يكون من المتعذر ألا تتمخض عنه نتائج مدنية. و حالما تتمخض عنه هذه الآثار تزول عنه هيئة السيادة سيادتها حتى في الأمور الدنيوية، عندئذ يغدو الكهنة أرباب السيادة الحقيقة، ولا يكون الملوك إلا حتياطاً لهم. (٢)

أما هوبز فقد أشتهرت فلسفتة بالتبديد السياسي و الربط بين الدين و الدولة إلا أن ذلك لا ينفى عن فكرة هوبز فى أمكانية القول بالتسامح إلا إذا أخذنا مفهوم التسامح على أنه احترام الأخر و إعطاءه حرية التفكير و التعبير و الفصل بين الدين و الدولة، و هذا ما عبر عنه هوبز قائلاً في الفصل ٢٦ من اللفياثان على نحو يظهر كأنه يدافع عن اللا تسامح "هذا زيادة على أنه ليس هناك مكان في العالم يسمح فيه للناس بإتباع أحكام إلهية غير ما تحدده الدولة على أنه ذلك النوع. فالدولة المسيحية تعاقب من يتحولون عن الديانة المسيحية، و كل الدول الأخرى تعاقب من يريدون تأسيس ديانة تحرمها تلك الدول"(٣)

---

(١) سبيتوزا، رسالة في اللاهوت و السياسة، ترجمة : حسين حنفي، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر، ١٩٧١، ص:٤٥١.

(٢) جان جاك روسو، العقد الإجتماعي، ترجمة : بولس غانو، المكتبة الشرقية، ١٩٧٢، ص:١٨٤.

(٣) توماس هوبز، اللوفيا ثان : الأصول الطبيعية و السياسية لسلطة الدولة، ترجمة : ديانا حرب و بشرى صعب، مراجعة: رضوان السيد، أبوظبي، ٢٠١١، ص:٣٣٤-٣٣٤.

فالظاهر هنا بمظهر اللا تسامح إنما هو الدفاع عن وحدة الدولة و السلطة الروحانية لجميع أفراد المجتمع، فهم يتعايشون ضمن دين دولة واحدة، حتي يتفادوا العودة الى الحالة الطبيعية. (١)

و من ثم فليس رفض هوبز للتسامح بمعنى "إحترام الآخر" و "ضمان حرية ضميره" بالرفض التام لكل تسامح، و لكنه رفض لضرب من التسامح رأى هوبز أنه يهدد كيان اللوثيان الضامن للحياة و الحضارة، و هو ما يسوغ في تقديره الأكتفاء بالدرجة الدنيا من التسامح، و تعنى هنا "تسامح التعايش" تحت سلطان لوثيان تحديداً. و بذلك يعد موقف هوبز جامعاً بين السلطة الروحية و الزمنية بل و أعطاء السلطان الأعلى للدولة. (٢)

و يختلف موقف هوبز عن موقف رجل الدين الكاثوليكي و الكاتب الفرنسي جاك بينيني بوسيه عندما قال في عبارة شهيرة "إنني غير متسامح معك؛ لأنني على حق، و لأنك على خطأ" و هو موقف ينطلق من كون صلته بالحقيقة ليست مجرد "مطلب" كما يقتضي التسامح، بل يعدها تملكاً للحقيقة مما يعني أنه لا يريد "تصديقاً للحقيقة" يلبي مطالبه عبر التسامح و التفاهم؛ بل يريد فرض مطلبه على أنه الحقيقة من ثم أنه يرغم الأخرين على الإقتناع به.(٣)

و بذلك يمكننا القول أن مفهوم التسامح في الفلسفة الغربية الحديثة أرتبط بنيوياً لا بواقعة الأختلاف و التنوع عموماً، بل بتجربة الأنقسام الحاد و المعمم الذي ساد كل أوروبا الغربية خلال فترة الإصلاح الديني، و قد عمد فلاسفة التنوير على إعادة القيمة الحقيقة للفلسفة و العقل و إحلاله محل الخرافة و فرضوا حملة من أجل الأمور تقر بأن جوهر الدين واحد يتمثل في التسامح، محبة الأخرين و خدمة المجتمع و إحلال التسامح محل التعصب من أجل السلام المدني في المجتمع. لذلك احتلت الحرب ضد الكنيسة و الأحكام المسبقة المرتبطة بالدين مكانة الصدارة في النشاط الفكري التنويري الجديد.

---

(1) Th. Hobbes, leviathan (Latin) trad fr. Paris, 2004. P.524-544.

(٢) صالح مصباح، فلسفة الحداثة الليبرالية الكلاسيكية من هوبز إلى كانط، بيروت، ٢٠١١، ص:١٤٠.

(3) Enrique Dussel, << Deconstruction of the concept of the tolerance: from tolerance to solidarity>> in constellation, oxford, Sep. 2004, p. 227-336.

جون لوك و التأسيس المعرفي للتسامح الديني :

يعد لوك من أبرز من قدم الحجج و البراهين الممهدة للتسامح الديني، حيث قام لوك بتأليف "رسالة في التسامح" (١٦٨٩) و قد تأسست دعوى لوك للتسامح على فصل تام بين الدولة من جهة و الكنيسة من جهة ثانية (١) و ذلك دفاعاً عن حقوق الأفراد في الأعتقاد و ممارسة حرية الأختلاف و الدفاع عن التعددية الدينية.

و قدم لوك في كتابه "رسالة في التسامح" رؤيته للتسامح بوصفه ضرورة أساسية لحل الخلافات و الصراعات الدينية، و انطلق في تصوره للتسامح من مبدأ الحرية، و الفصل بين المادي و الروحي؛ فمن جهة أن الإنسان حر؛ فهو حر في أختيار العقيدة التي يؤمن بها، و ليس لأحد أن يجبره على عقيدة بعينها، أو أن يعاقبه بأي صورة من صور العقاب و الحرمات. و من جهة ثانيه للكنيسة الحق في إدارة شئون الروح، و أما الدولة فعليها أن تؤدي واجباتها نحو مواطنيها و تلبية حاجاتهم المادية. هذا الفصل بين المادي و الروحي يتطلب أن يلتزم كل طرف بمهامه، ولا تتدخل الدولة في شئون الروح، ولا تعتنق ديناً بعينه. و على الرغم من إيمان لوك بحرية الإنسان في الأختيار؛ فإنه قيد التسامح بشرط الإيمان، فلا تسامح مع الملحدين؛ فهم قوة مدمرة للمجتمع و الأديان. (٢)

و دعوة لوك إلى ضرورة التمييز بين الدين و الدولة، ضماناً لحق الأفراد مهما اختلفت الأديان في المجتمع الواحد، فالتسامح ليس ضد الدين ولا ضد العقل، بل هو حل عقلاني لتجاوز الصراع المذهبي.

فالتسامح بين الأديان تجسيد صريح للتسامح الديني ولا ينبغي أن ينسب الحق المطلق و الكامل لدين من الأديان فكل دين حسن مادام يرضى أتباعه و نزعاتهم،(٣) و يميز في التسامح الديني بين التسامح الشكلي : المتمثل في إحترام شعائر و إعتقادات الأديان المخالفة دون إخضاعها لسيطرة هيئة دينية او سياسية.

التسامح الموضوعي: و هو الأعتراف الإيجابي بشعائر الأديان الأخرى.

أما من حيث من يتسامح معهم فهم إما من أتباع الأديان الأخرى، و أنصار الفرق المختلفة، و أنصار الدين الواحد سواء فيما يتصل بالعقائد الأساسية فيكون التسامح مع كل الأديان أو مع بعضها دون البعض الأخر. (٤) أما ما يتنافي مع "الإجتماع الإنساني" أختلافاً كان أو عملاً و ما يقوم على إغتصاب القوانين و الألتفاف عليها و الإنتماء إلى كنيسة ترتبط بدولة أخرى مثلما هو حال المسلم الذي يعيش ضمن بلاد مسيحية.

---

(١) أنظر : جون لوك في الحكم المدني، ترجمة ماجد فخري، بيروت، ١٩٥٨، ص:٨٧-٨٨.

(٢) محمد رمزي، رسالة جون لوك في التسامح : قراءة في الرؤى و الأبعاد، المجلة العربية للثقافة، المجلد (٣٠)، العدد (٦٠)، ٢٠١٢، ص:٩٧-١٠٢.

(٣) جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة : عبدالرحمن بدوي، دار الغريب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨، ص:٩.

(٤) المرجع السابق، ص:١١٣-١١٤.

و أخيراً "الإلحاد" فكلها مما لا يمكن التسامح معه؛ لأنها ليست عقائد عادية تقبل؛ بل هي تهدد الدولة ذاتها بكل مقوماتها من حرية و ملكية و حياة، و ذلك يتعارض مع الدين الحق أي مع "السلام و العدالة و الصداقة" (١) فالتسامح الديني من وجهة نظر لوك لزاماً تفرضه الضرورة العقلية لذلك فإن تجاوز هذه الضرورة يعتبر خرقاً للضوابط و الحدود و فيها إدعاء لبلوغ الحقيقة المطلقة، لذلك يقول لوك "العقل هو سند الأختلاف" (٢)

فكل إعتقاد ديني يعتبر محدوداً و يتجاوز قدراتنا المعرفية و لذلك، فإن التعدد و الأختلاف يغيب الأمن و السلام إذا لم يكن التسامح متبادلاً بين الأفراد و المؤسسات و الكنائس "لأنه إذا كان معتقد أي كنيسة هو الدين الصحيح و المنقد للبشر، فما الدين الذي يمكن إعتباره خطأً و زائفاً؟ (٣)

و مما لا شك فيه أنه يمكن أن يعد موقف لوك النهائي شديد التحرر إذا ما قورن بالموقف الهوبزية التي تيناها في بداياته و لكنه أقل جذرية مقارنة بأراء اسبينوزا التي ذكرناها من قبل.

---

(١) المرجع السابق، ص:٧٩.

(٢) فريال حسن خليفة، الفلسفة و البيئة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦، ص:٥٤.

(٣) جون لوك، رسالة في التسامح، مرجع سابق، ص:٧٠.

فولتير و محاربة التعصب و الإكراه في الدين :

يعتبر فولتير Voltaire (١٦٩٤-١٧٩٤) من أهم الفلاسفة الذين أقترنت أسماؤهم بالدعوة إلى التسامح، فقد وجدت أفكار جون لوك صداها لدى فولتير الذي ألف كتاباً تحت عنوان "رسالة في التسامح" و تبني الأفكار ذاتها الداعية لتعني التعصب و بيان آثاره؛ فأصل المخاطر عدم التسامح، و سعى للتعرف على جذور التسامح و التعصب لدى اليونان و الإغريق و الرومان، و في الديانتين المسيحية و اليهودية و قد حاول فولتير أن يوسع مفهوم التسامح؛ بحيث لا يجعله تسامحاً بشأن الدين؛ لكي يكون تسامحاً بين البشر في إطار "الأخوة الإنسانية"(١)

لذلك أنصرف فولتير إلى تحرير العقول من الخضوع لمعتقداتها و التوجه للفهم الصحيح للكون بواسطة تحكيم العقل، فأقترن التسامح عند فولتير بحرية العقيدة، حيث ندد بإضطهاد الإنسان للإنسان بسبب الختلاف (٢) في العقيدة و هو نفس الأمر الذي ندد به (اسبينوزا) في كتابه (رسالة في اللاهوت و السياسة) حينما أخضع الكتاب المقدس للنقد التاريخي، إذ يقول :"... حرية الفكر لا تمثل خطراً على التقوى أو على سلامة الدولة، بل إن القضاء عليها يؤدي إلى ضياع السلام و التقوى ذاتها"(٣) فقد كان فولتير مناقضاً للظلم و التعصب، داعياً للتسامح و السلام و الحرية الفكرية، فأقر فولتير بحق كل مواطن في الأعتقاد الحر وفق ما يمليه عليه عقله شرط عد الإخلال بالأستقرار السياسي. (٤)

و قد قرن فولتير بين التسامح و حق العيش في سلام، ولو على حساب حقوق أخرى؛ إذ برأيه يمكن لطائفة من الطوائف أن تنقص حقوق لها مقابل أن تعيش أمنه (٥) و يؤكد فولتير أن "التعدي الساخر على دين من الأديان هو بمثابة دليل قاطع على أن العقل الذي يقف وراءه إنما هو عدول عن الحقيقة (٦)

و قد قام فولتير أيضاً بوضع حدود لمبدأ التسامح على غرار جون لوك؛ فقد قال أيضاً بضرورة حصر الوظائف العامة و المراتب الرفيعة في من يعتقدون بدين الدولة؛ لأنه كان يعتقد أن الدين ضروري لضبط الشغب.

---

(١) فولتير، رسالة في التسامح، ترجمة : حنريت عبودي، سوريا، دار بترا للنشر و التوزيع، ٢٠٠٩، ص:١٦٣-١٦٧.

(٢) اندري كرستون، فولتير حياته آثاره، فلسفة، منشورات عويدات، باريس، ترجمة : صباح محي الدين، ط٢، ١٩٧٤، ص:٥٢-٥٣.

(٣) سبينوزا، رسالة في اللاهوت و السياسة، ترجمة : عبدالرحمن بدوي، دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع، ط١، ٢٠٠٥، ص:١٣.

(4) Voltaire Traite sur la tolerance Paris, 1989; 83.

(٥) فولتير، رسالة في التسامح، مرجع سابق، ص:٤٢.

(٦) المرجع السابق، ص:١٣٣.

و يرى فولتير أن "التسامح لم يثر أي حرب أهلية، أما اللا تسامح فإنه باب المذابح"(١) و رغم أتفاق كلمة اللا تسامح من كلمة تسامح إلا أنها تختلف عنها في المعني و الدلالة فهي "تهدف للإشارة إلى الأفتقار للتسامح في جوهرها، المتمثل في الأنغلاق التام إتجاه الأخر، فهى ظاهرة متعسفة قديمة قدم الإنسان و بالتالي يمكن فهمها بالغريزة"(٢) و منه فإن اللا تسامح يعبر عن حالة الإنسان الطبيعية الأولى، و هي حالة تعصب و توحش ينشرها الغرائز، و الفرق بين اللا تسامح و المتعصب، هو أن المتعصب لا يريد أن يبتعد عن موقفه لكنه يقر بأن للخصم أسبابه لكي يتصرف بمثل هذه الطرريقة، بينما اللا تسامح لا يرضى بالتزام موقفه، و هو يدافع أكثر شئ على حق، و أن يفرض هذا الحق على الأخرين.

و يتوج فولتير نصه بالدعوة إلى تسامح شامل :"أقول لكم سينبغي النظر إلى جميع الناس على أنهم إخواننا، (تقولون): كيف (يكون) التركي أخاً لي؟ و الصيني و اليهودي و السيامي كذلك؟ (أقول): بلي؛ ألسنا جميعاً أبنا الأب نفسه و مخلوقات الرب نفسه؟!!(٣) و يفترض دفاع فولتير عن التسامح فهماً للدين بشكل مختلف؛ إنه ذلك "الدين اللاديني" (٤) أي تلك النزعة الربوبية التي تعترف بوجود الرب، و بواقعية الخير و الشر و بخلود النفس و بالتواب و بالعقاب (٥)، فيؤكد فولتير على أهمية الطابع الأخلاقي للدين :" ينبغي أن يكون الدين مطابقاً للأخلاق و شاملاً مثلها، و كل دين لا توافق عقائده الأخلاق فإنما هو دين كاذب. (٦)

و يعد مفهوم فولتير "للتسامح" في معجمه الفلسفي قمة ما توصل إليه التنوير في تحديد المفهوم حيث يقول "ما هو التسامح؟" إنه خاصية الإنسانية. نحن جميعاً... للنواقص و الأخطاء؛ فليعف بعضنا عن حماقات البعض الأخر على نحو متماثل، ذلك أو القوانين الطبيعية. (٧)

من الواضح في هذا الطرح لمفهوم التسامح يقوم على عدد من الفرضيات الأساسية : أولها : أن التسامح فضيلة تنطلق من الذات. فالفرد هو المنشئ لمعنى التسامح و الضابط له، و دون وعيه بيقمة، لن يكون للمفهوم قيمة و جدوى عملية. ثانياً: أن تحقيق هذه الفضيلة يتطلب توفر شرط موضوعي أساس، و هو الفصل بين الموؤسسة الدينية و الدولة من ناحية، و رفع يد المؤسسة الدينية عن إقرار واجب الإيمان من ناحية أخرى؛ فيكون الإيمان شأناً خاصاً، لا يتوجب التدخل فيه.

---

(١) المرجع السابق، ص:٥٢.

(٢) مايكل أنجلو، أعداد الحوار (أسباب اللاتسامح و مظاهره) الهيئة المصرية العامة للحوار، القاهرة، د ط، ٢٠١٠، ص:٣٥.

(٣) فولتير، رسالة في التسامح، مرجع سابق، ص:١٣٧.

(٤) بحسب عبارة رنيه بومو Rene pomeau. La religion de Voltaire, Paris, 1969 .

(5) Voltaire Dicitionnaire philosophique, Paris, 1964, (Articte: Dieu).

(٦) جاكان لافرى، الرتب الطبيعي، الترجمة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص:١١٥

(7) Voltaire Dicitionnaire Philosophique op. cit., (Article: Tolerance).

خاتمة :

إذا كان الفلسفة تقوم على إثارة الحكمة و محبتها، فمن الضروري أن يكون الأساس الذي ترتكز عليه هو تبادل الحديث. و المقصود به الحوار ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا بوجود الأخر، و ما يهم في الأمر هو الأخر المختلف لأنه من يتفق معنا لا يشكل أي إشكالية. فمن الضروري أحترام الأخر مهما أختلف عنا لا أن ننوب عنه في تقرير الحق و الصواب، فالفلسفة هي التفكير المشترك الذي تجتمع فيه الأراء المختلفة رغم تناقضها فهى تقف حداً فاصلاً أمام أستمرار علاقة الأنا بالأخر. هذه العلاقة التي ينبغى أن تقوم على التسامح الذي يؤسس لتبادل الحر للأفكار.

فقد أثار مفهوم التسامح الذي ولد من رحم التعصب و العنف الطائفي و المذهب، أثار الكثير من الأفكار على المستوى الفلسفي و السياسى و الفكري بشكل عام. و لعل أبرزها أفكار فلاسفة التنوير الذين تناولوا التسامح بأشكال مختلفة، و لكن الغاية كانت واحدة أساسها نشر التسامح و تنوير العالم. و لم يكن مفهوم التسامح وليد لحظة تاريخية واحدة، بل كانت نتاج تطور تاريخي طويل كان، إنطلاقاً من الحضارات الشرقية القديمة و الفلسفة اليونانية، ثم كان دور فلاسفة التنوير في تخليص التسامح من قيود الكنيسة، و هي الفلسفة التي ساهمت في نهضة الفكر الفلسفي عن طريق تحرير العقل من أشكال الوصاية، حيث تأكد مبدأ لا سلطات على العقل إلا العقل، و سادت الدعوة إلى ضرورة سيادة خطاب التسامح على كل الأصعدة، و نبذ أشكال العنف و الأستبداد بالرأي، و تبني منطق الحوار و إحترام الأخر المختلف.

و مهما أختلفت أشكال خطاب التسامح و تنوعب، إلا أن هدفها كان واحداً ألا و هو تحقيق مقولة (لا سلطان وعلى العقل إلا العقل نفسه) من أجل تحرير الإنسان و بذلك عمل فلاسفة التنوير على إعادة الإعتبار للعقل والذكاء البشري والدعوة إلى تأسيس علاقات جديدة بين الحكام في إطار الحرية.

ومهما كان من قول، فلابد من التأكيد على حاجة العالم اليوم وبصورة مطلقة وأكثر من أي وقت مضى إلى التسامح بنفس الطريقة التي نادى بها فلاسفة الأنوار.

المراجع :

(١) ابى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظر الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، المجلد الثاني.

(٢) ابراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، القاهرة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، مصر.

(٣) المادة الأولى من اعلان مبادئ حقوق الإنسان.http://mansourdialogue.org/Arabic/fikr2-htm/

(٤) اميل إبراهيم، تاريخ الفلسفة القرن الثامن عشر، ترجمة : جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت.

(٥) اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، ترجمة : خليل أحمد خليل، دار عويدات، بيروت.

(٧) اندري كرستون، فولتير حياته آثاره، فلسفة، منشورات عويدات، باريس، ترجمة : صباح محي الدين.

(٨) أنظر : جون لوك في الحكم المدني، ترجمة ماجد فخري، بيروت.

(٩) بحسب عبارة رنيه بومو Rene pomeau. La religion de Voltaire, Paris .

(١٠) توماس هوبز، اللوفيا ثان : الأصول الطبيعية و السياسية لسلطة الدولة، ترجمة : ديانا حرب و بشرى صعب، مراجعة: رضوان السيد، أبوظبي.

(١١) جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة : عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي.

(١٢) جميل صليبا، المعجم الفسلفي، ج١، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(١٣) جان جاك روسو، العقد الإجتماعي، ترجمة : بولس غانو، المكتبة الشرقية.

(١٤) جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة : عبدالرحمن بدوي، دار الغريب الإسلامي.

(١٦) جاكان لافرى، الرتب الطبيعي، الترجمة العربية، بيروت.

(١٧) سمير أبو حمدان، فرح أنطوان، صعود الخطاب العلماني، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب العالمي، الدار الإفريقية العربية.

(١٨) سمير خليل، التسامح بين شرق و غرب، بيروت، دار الساقي.

(١٩) سيبتوزا، رسالة في اللاهوت و السياسة، ترجمة : حسين حنفي، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر.

(٢٠) سبينوزا، رسالة في اللاهوت و السياسة، ترجمة : عبدالرحمن بدوي، دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع.

(٢١) صالح مصباح، فلسفة الحداثة الليبرالية الكلاسيكية من هوبز إلى كانط، بيروت.

(٢٢) على بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق : محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر و التوزيع، القاهرة.

(٢٣) عبدالرحمن بدوى، الموسوعة الفلسفية، ج٢، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت.

(٢٤) فخر الدين الرازي، مختار الصحاح.

- http://almeshkat.nel - http://al-mostafa.com

(٢٥) فيولت داعز، الطائفية و حقوق الإنسان، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، دار المستقبل العربي.

(٢٦) فريال حسن خليفة، الفلسفة و البيئة، مكتبة مدبولي، القاهرة.

(٢٧) فولتير، رسالة في التسامح، ترجمة : حنريت عبودي، سوريا، دار بترا للنشر و التوزيع.

(٢٨) مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطاعة و النشر و التوزيع، بيروت.

(٢٩) محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

(٣٠) محمد رمزي، رسالة جون لوك في التسامح : قراءة في الرؤى و الأبعاد، المجلة العربية للثقافة.

(٣١) مايكل أنجلو، أعداد الحوار (أسباب اللاتسامح و مظاهره) الهيئة المصرية العامة للحوار، القاهرة.

(٣٢) (Dictionnaire de francais.ed, larousse.

(33) Enrique Dussel, << Deconstruction of the concept of the tolerance: from tolerance to solidarity>> in constellation, oxford.

(34) Th. Hobbes, leviathan (Latin) trad fr. Paris.

(35) Voltaire Traite sur la tolerance Paris.

(36) Voltaire Dicitionnaire philosophique, Paris.

(37) Voltaire Dicitionnaire Philosophique op. cit., (Article: Tolerance).